استضافها بيت تايكي لصدور روايتها «خطوط تماس»

الروائية غصون رحال: أصابتني الكتابة بلعنتها وغمرتني بشكها ويقينها

عمان ـ «القدس العربي» ـ من يحيى القيسي:

ضمن نشاطاته الدورية استضاف بيت تايكي التابع لأمانة عمان الكبرى خلال الأسبوع المنصرم، لقاء فنيا وأدبيا احتفاء بصدور الرواية الثالثة لغصون رحال «خطوط تماس» عن دار الشروق للنشر والتوزيع في عمان، وقد تحدثت في اللقاء الناقدة رفقة دودين، والروائي العراقي المقيم في عمان علي بدر، فيما قدمت رحال شهادة ابداعية. وقالت دودين في دراستها النقدية «تستند هذه الرواية في شكلها العام الى ثنائية تمركز الأنوثة وتجعلها محور دائرة الذكورة هوامش لها، واللافت في هذه المركزية غياب المرأة الأنموذج، وحضورها من خلال هذا الغياب، ومن خلال استحضار الرجال لها، وهم بحضورهم شكلوا المتن الراسخ، وهي بغيابها شكلت الحلم الضائع غير القابل للتحقق على أرض الواقع بانتفاء الشروط الموضوعية لهذا التحقق العياني ولكن موجة الوعي المتجاوز للواقع الموضوعي في السرد قد أشار بشكل أو بآخر الى أن علة التضاد في العلاقة بين الذكورة والأنوثة ليست في ذات وكينونة البطلة الغائبة حورية، بل هي في تنافر وتناقض، تضاد هؤلاء الرجال الذين ينتظرون قدومها الى المقهى بناء على رسالة الكترونية حطت في بريد كل واحد منهم على حدة، وتضمنت موعدا في مقهى السراب للقيا. وتقول د. دودين عن هذا المكان «المقهى في رواية غصون رحال رمز للعام، ورمز لعوالم تجري فيه منفصلة عن عوالم الواقع الاجتماعي المعتادة، حيث يحضر الرجال الى المقهى بدون عائلاتهم، بل انهم يريدون عزلة عن عوالمهم المعتادة، ويحاولون اقصاءها، وتركها وراءهم، وهم بشكل عام متنورون، وبراغماتيون بوصفهم نخبويين فيهم المصور والصياد والباحث عن المال والجاه في امريكا، يرون أن فكرة العائلة كما هي في المشرق قائمة على علاقات المنفعة والمصلحة بين أفرادها، كما يشيرون لعدم احتمالهم المواعيد والارتباطات العائلية المملة، فالعائلة وهم بالترابط والتراحم يرتبط بالبيوت على وجه التحديد، وهنا يرتبط المكان بالمغزى والفكرة الجوهرية التي تعني أن مثل هذا الصراع لن يكون في أمكنة خاصة وحميمية وربما معادية ومجافية، بل في أمكنة عامة مفتوحة حتى لو كان اسمها مؤشرا لصراعات سرابية غير محسومة، فمقهى السراب هنا ساهم في تشكيل المعنى السرابي هذا، فبدا وعاء للحياة بتعدد مفرداتها، وتعدد حيواتها وتنافر وتضاد من يحيون فيها».

أما الروائي علي بدر فيقول في مداخلته «الرواية أقرب الى النوفيلا منها الى الرواية، هنالك حدث واحد زمنه بضع ساعات، ويشتمل على استذكارات واسترجاعات طويلة ومعقدة ومتشابكة، حيث تقدم فيه شخصيات نفسها بصورة مسرحية درامية فاما شخصية تقدم نفسها أو يتم تقديم الشخصية بواسطة الشخصيات الأخرى، أو تقدم الشخصية من خلال الراوي، وان كنا نرى أن شخصيات أدخلت في النمط، فخالد هو العابث اللامكترث، واللامبالي، الصياد هو الخائن ومقتنص اللذات، وسيف الله هو المتدين والمؤمن والذي يتمنى أن تكون حورية البطلة المفترضة محجبة ومؤمنة مثله... تتقدم في قراءة هذه النوفيلا اللغة الشعرية واختلافات الحوار بين الشخصيات ضئيل وان حاولت غصون أن تجعل حديث الشخصيات مختلفا، ولكنه بنسق واحد فاللغة المجازية ذاتها والاستخدامات الاستعارية نفسها».

شهادة في كتابة الرواية

أما الروائية رحال فقالت في مداخلتها عن روايتها: «الحكاية ببساطة؛ ان ليس هناك حكاية، فما المثيرُ الذي يمكن ان تأتي به امرأة لم تختبر مذ رأت عيناها النور بشاعة الحرمان؟

بل ان الكثير من الأفكار الحالمة التي كانت تراودني على حين غرة، والتي بدت لي في معظم الأحيان عصية المنال، كنت أجدها تتجسد حقيقة واقعة أمام ناظري بمجرد أن ابدأ التنفيذ. عالم سلس، متقن يثير حيرتي، فيحلو لي ان أعزو أسباب اكتماله الى ملاكي الحارس! أتخيله يقف هناك... على حافة الكون مراقبا خطواتي، وما ان يستعصي علي أمر حتى يسارع الى نثر غباره السحري الخاص فوق رأسي.... هباءات سحرية، وتتحول أحلامي الى أشياء ملموسة على الفور ولحظات ملونة!

ما الجديد الذي يمكن ان تضيفه محامية، تأخذها مسارات الحياة في خطوط شديدة الوضوح والاستواء، تلعب الادوار المنوطة بها، كما هو متوقع منها من قبل الجميع، بكفاءة تحسد عليها؟

تنازلت عن تحقيق الأهداف المستحيلة، وتلاعبت بالطقوس العائلية المعقدة، تحايلت على دوري الممل، فأكثرت من العمل التطوعي، ومن اقتناء المنتجات الثقافية... احترفت السفر، وأخذتني متاهة الحياة الى مسارات مدهشة ومؤلمة في آن».

لم يدر في خلدي يوما أنني سأكون كاتبة، فأنا فقط أهوى القراءة، اعتدت منذ طفولتي على قتل الفراغ بقرض الكتب التي كان حجم بعضها يفوق حجمي الصغير، ويبدو أن عالمي المتخم بالفراغ هو أيضا ما دفعني الى أن أحشو جوفه الفارغ بالآلاف من الكلمات. لكن المشكلة الآن ماذا أكتب؟

ماذا أكتب وهذا الواقع المعاق لا يعد بالكثير، ولا يؤجج نيرانَ المخيلة؟ وما كنت اريد خلق عالم جميل لأهرب اليه، أو اعادة كتابة حكاية الأميرة النائمة بانتظار ان توقظها قبلة الأمير... اردت فقط ان أُسمع الأفكار المجنونة التي تتسكع داخل رأسي للعالم الخارجي، أردت أن أطلق صفارة انذار، أن افتح صندوق «باندورا» فيهب العالمُ هبة رجل واحد في وجه الأمراض والشرور، بكل بساطة، أردت خلق عالم لا تضام فيه امرأة!

لكن لقلمي أهواء أخرى!

قال: سأكتب الواقع كما هو، فالواقع أيتها الغبية أشد غرابة من أي خيال. الخيال لا لغز له، اما الواقع فذلك اللغز، ذلك العبث، ذلك المستحيل الذي يتجسد امام اعيننا خلسة فلا نصدقه!

بدأت أخط اعلاناتي الشخصية، في محاولة للعثور على مفقوداتي الخاصة بين سطورها، فجاءت «موزاييك» على هيئة (خارطة طريق) الى الوطن الذي طمس الاحتلال ملامحه... واتخذت «شتات» شكل (الحل الدائم) لمشكلة غياب عالم بلا ظلم وبلا خرائط.

وبعد أن أصابتني الكتابة بلعنتها، وغمرتني بشكها ويقينها، بحكمتها وطغيانها، باشتعالاتها وخيباتها، آثرت الاكتفاء، والكف عن كتابة الاعلانات البلهاء عديمة الجدوى، الى أن حل التاسع من نيسان (ابريل) 2003، تاريخ ذو شجون... يصعب تجاوُزه! علامة فارقة على وجه الزمن.

أو محض «خطوط تماس» ضلت مواقعها بمحض الصدفة!

في ذلك النسيان الغريب، قفزت الوحدة في وجهي فجأة لتذكرني «بتميزي الايجابي» عن الآخرين؛ وحدي من بين جميع الطلبة ـ على اختلاف جنسياتهم ـ من تمسه الصور التي تمر بانتظام على شاشة التلفزيون في مطبخ سكن الجامعة، وتعنيه على نحو قاتل: العراق يتحرر!!!

غطاني الخجل.... أيتحرر وطن بحجم العراق من المطبخ؟ وددت لو انقل جهاز التلفزيون الى الحديقة مثلا، او الى السطح... الى أي مكان آخر، في محاولة أخيرة يائسة للتمسك بما تبقى لي من جذور امام الغرباء.... مرغمة نفسي على تخيل كم ستبدو وقائع التحرير اكثرَ تشويقا وأشدَ جاذبية في العراء ... في الهواء الطلق، منها حول أطباق المائدة، وداخلَ أكواب النسكافيه، وبين الشوك والسكاكين ....

لم تجد المظاهرات نفعا، ولا كل الاعتصامات التي نظمها في الجامعة اتحاد الطلبة وتحالف «أوقفوا الحرب».

لم تسعفنا المظاهرة المليونية التي أرقت عاصمة الضباب وهي تجوب شوارع لندن المتجمدة في عز كانون الثاني (يناير)، وتنفث أنفاس الغضب الملتهبة في عروقها.

لم تتوقف الاستعدادات للحرب... اندلعت في غضون أسابيع أمام دهشتي واستغرابي من عجز تلك المظاهرة المليونية المهيبة عن ثني بلير، وارغامه على التراجع عن غزو العراق، في بلد يزعم انه مخترع الديمقراطية الحديثة!

لا اصحو من النوم كل صباح، الا لأجل ان أتابع ما يستجد من الأخبار على شاشة الكمبيوتر البلهاء عبر شبكة الانترنت... وكل صباح أجد الهزيمة في انتظاري.

أين أهرب من عاري؟

خطرت لي فكرة الدخول الى مواقع الدردشة على الانترنت، لأتدثر بأنفاس الوطن الدافئة، تجولت قليلا في الغرف العربية، الأمن مستتب، السلام يعم المتحدثين، ليست هناك اية اشارة لما يجري في الجوار، تجاهل تام، وتواطؤ مدروس!

راقبت مسارات الحديث، الرومانسية طاغية، العلاقات على أشدها بين المتحدثين ويبدو انهم يعرفون بعضهم منذ زمن بعيد ... وحدي الغريبة بينهم.

غربة اخرى تضاف الى غربتي، لوهلة، تقمصتني نون النسوة، اخترت اسما مستعارا غاية في الاغواء: «ميرميد» حورية البحر! وفيما كانت اسماك القرش المفترسة والحيتان القاتلة تلتف حولي لاصطيادي، كنت أحيك الحكايات وأختلق القصص عن نساء لا وجود لهن، نساء على قيد الانتظار.

عدت الى هنا وما زالت الحرب تدور، ما زالت القصص تتكاثر كالجراد في غرف الدردشة على الانترنت.

ما زالت النساء يغزلن وينفثن ما غزلن، عوليس أيضا ما زال غائبا!

تمزقني هذه الحالة، تفتك بأعصابي، تلح علي لأن أكتب.

أرواح من ماتوا أو قتلوا تطاردني، صور علي، ومحمد، وعائشة، ومن لا أذكر من الأطفال... كانت قد شقت روحي الى نصفين...؟

حسنا، قررت ان أكتب بنصف روح، وأهدي ما أكتب الى النصف الآخر! فاما ان أعيد الى روحي روحها، أو أن اقضي على البقية الباقية.

ولكن، كيف يتأتى لي ذلك وعلاقتي بغرف الدردشة انتهت بانتهاء حالة اغترابي؟

لا بد من وهم اذن!

لا بد من خيال جامح قادر على نسج الحكاية، وحياكة تفاصيلها.

استدعيت رجالي؛ الحيتان القاتلة وأسماك القرش المفترسة في فكرة مجنونة.

ولم لا؟ سوف أجعلهُم ينسجون خيوط الحكاية عوضا عني، فيما أسترخي أنا فوق سريري لأتفرج عليهم كما اتفرج على فيلم كوميدي رديء...

انه العبث بعينه!

انا «ميرميد ... حورية البحر ... أسطورة الخذلان الكبرى... ما الذي أريد قوله بالتحديد؟

ربما أريد أن أقول ان لا عقلاء بيننا، فلا هم أخذونا الى حياة لا تودي بنا الى الموت، ولا هم قادونا الى موت يودي بنا الى بعض الحياة.

لا هم ساروا بنا الى بر الأمان، ولا هم تنحوا مفسحين الطريق لمن يتقنون فن القيادة، للوصول بنا الى حيث سواء السبيل».

مما يذكر هنا أن هذه الأمسيات تأتي ضمن نشاطات بيت تايكي الشهرية، والتي يشرف عليها القاص ابراهيم جابر الذي كان قد قدم الأمسية، كما غنت المطربة قمر بدوان مجموعة من الأغنيات بصوتها الرائق الجميل بعد انتهاء المداخلات النقدية، وتشرف رئيسة تحرير مجلة «تايكي» القاصة بسمة النسور على نشاطات البيت، والمجلة، والخطط الثقافية لهما.

الخبر والغفران والجذور الممكنة

محمّد خريّف*

■ خبر الرّسم في السّرد شهادة على بؤس الاقتفاء والسّير على المنوال أو النّمط المحنّط أو المرسّخ بالثّقافةالماورائيّة وان كان جذر(خبر) يطيح على مستوى المعجم إمكانات أخرى منها ما اقرّ الاستعمال معانيها ومنها جذور يمكن أن يكون لها معان افتراضية وهي (بخر– ربخ – خرب– برخ–رخب–) وهذه الجذور الممكنة تحرّر الخبر من بؤس الشّاهد الحاكي الخانع مقتفي الأثر الدّليل الكاذب بتخريبه وفي التّخريب إحالة على معنى الدّنس والدّنس فعل العّامة في حين يكون الخبر بمعنى الرّواية من فعل رواة الشّعر والحديث لذلك كان الخبر متأرجحا بين القبول والرّفض شانه شان الشّعر محمودا منبوذا محمودا مالم يضرّ بمسلم ومالم يعرّض بعقيدة على حدّ تعبير الجرجاني في دلائل الإعجاز وان لم يلتزم الخبر بشروط التّقوى فخرّب نثره محاولا تجاوز السّقف في مقامات الهمذاني حيث مدّ خراب الطّبع وجزر خبر الرّسم و انتصار تهمة الزّندقة على تمرّد الذّات فخنس لاعج الخراب بعصا القائم وتهويل يوم الحساب والعقاب. والتّرغيب في يوم الغفران وان كان جذر "غ ف ر" لايتيح ما يتيحة جذر"خ ب ر" من إمكانات أخرى افتراضيّة غير رغف وغرف وفغر وهي متمكّنه في معاني الفراغ والغرف وما يتعلّق من معاني الأكل والشّراب والمجون وغضّ الطّرف والسّتر والكتمان . فالغفران بمعنى آخر خبر زور يغطّي خبر خطيئة أو سيّئة وكأنّي بخبر الغفران أو رسالته بخبر يغطّي خبرا والخبر هي أخبار أعلام أمثال المتنبي وابن الرواندي وبشّار وأبي تمّام والحلاّج وغيرهم أمثال مولاي الشيخ والمقصود به المعرّي في رسالة ابن القارح يخشى ابن القارح أن تبقى كما هي دون أن يعلن دون أن يعلن أصحابها بأخبار أخرى يعلنون فيها توبتهم فيغض الله ورسوله وصحابته عنهم الأبصار.

«ولكنني اغتاظ على الزّنادقة والملحدين الّذين يتلاعبون بالدّين ويرومون إدخال الشّبهات والشكوك على المسلمين ويستعذبون القدح في نبوة النّبيين صلوات الله عليهم أجمعين ويتظرّفون و يبتدئون إعجابا بذلك المذهب...والحسين بن منصور الحلاّج من نيسابور وقيل من مرو ويدّعي كل علم وكان متهوّرا جسورا يروم انقلاب الدّول ويدّعي فيه أصحابه الإلوهيّة ويقول بالحلول ويظهر مذاهب الشّيعة للملوك ومذاهب الصّوفية للعامّة وفي تضاعيف ذلك يدّعي أن الالوهيّة قد حلّت فيه وناظره علي بن عيسى الوزير فوجده صفرا من العلوم" ص36

وابن القارح كان في عرضه أخبار هؤلاء المخرّبين معلقّا على كل خبر بما يواتي العقل والذّكاء لاالتهوّر والزندقة فهو لا يخرج عن خبر الرّسم وبؤسه إلى خبر التمرّد وغناه والعبرة بالنّهاية أو المال ورجاء التّوبة لا الثّبات على العناد كما يقول معلّقا على نهاية علي بن العباس بن جريح الرّومي" فأرجو أن يكون هذا القول توبة ممّا كان اعتقده من ذبحه نفسه مشيرا إلى قول ابن الرومي لأبي عثمان" والخنجر إذا زاد على الألم ذبحت به نفسي"

ابن القارح يبدو مشفقا على هؤلاء راجيا لهم التّوبة والغفران اقتداء بما جاء في خاتمة الرّسالة من صيغ الاعتذار عن الخطل والعيوب" مافرغت من السّوداء وأنا اعتذر من خطل فيها أو زلل فانّ الخطأ مع الاعتذار والاجتهاد"

والخبر في رسالة ابن القارح التي كانت تأمر بتقبّل الشّرّع وتعيب من ترك أصلا إلى فرع كما يقول المعرّي في جملة يستهلّ بها رسالته يجسّم تلك الذهنية النّمطيّة التي لايمتزج حرفه بمقال الزّور والغفران لايخلو من أخبار الزّور اتّسعت جنّة الغفران لها في محاكاة جدّ ينطوي على سخرية لتلقح ذهنيّة طبيعيّة يساير خبرها مفهوم الغفران كما تستسيغه العقيدة عقيدة ابن القارح محنّطة بنمطية عقيدة العامّة عقيدة الشّرّع البدائي فيكفي أن ينجز طالب المغفرة خبرا افتراضيا يغطّي به خبره الواقعيّ المتحوّل بمقامات اللّغة ليحصل له الغفران الحتميّ ليصير الغفران بمفهوم مختلف كذبة خبر على خبر أو شهادة زور تصبح شهادة حقيقة وهذا الغفران خارج عرف النّمط صنيع إعادة صوغ الخبر لاغير في فضاء ميتافيزيقيّ هو فضاء الجنّة مشروطا بسلطة المتلقّي "اللّه" الذي بقدرته يتحوّل الكذب صدقا يؤهّل صاحبه للفوز بالجنّة لذا فمسالة الغفران مسالة متعلّقة بمقامات الخبر ومختلف تداولاته لابفعل الإنسان الواقعيّ في الدّنيا. لذا جاء الخبر في رسالة الغفران جملا قصصية راوية على المجاز وان اضمر الخبر مشروع تخريب العقيدة في رسالة ابن القارح وذلك بالإخبار الخالع نزوة ابن القارح بما يجس له أو يخطر من أمور السّارح في الجنّة بجبلّة الطّبع ونبض السّجع بالمحاكاة السّاخرة فيحصد القارئ النمطيّ تمرّدا من مقامات القول من خبر مكتوب بحرفه لايخالطه وشاية بزور إلى خبر ضد يد عالق بمقامه علوق غلبة الظنّ على اليقين والحركة على الجمود والقصيد على الآية والمدنّس على المقدّس والإمكان على التمكّن ويظلّ خبر إبليس خبر صدق لايشوبه زور فإبليس وحده لايطمع في جنّة ولا غفران ولايندم بل يستمرّ في غيّه لابائسا ولا خائفا مما هو فيه من أصفاد وأغلال وزفير نار بل لايزال متهكّما من ابن القارح ومن لفّ لفّه .

"فيطلع فيرى إبليس –لعنه الله– وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية .... فيقول إني لا أسالك في شيء من ذلك ولكن أسالك عن خبر تخبرينه أن الخمر حرمت عليكم في الدنيا وأحلت لكم في الآخرة فهل يفعل في الجنة بالولدان المخلدين فعل أهل القريات فيقول عليك البهلة أما شغلك ماأنت فيه أما سمعت قوله تعالى" ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون سورة البقرة آية 25

وتعطى حريّة القول بالخبر الخارب لإبليس أو يفتكّها متحديّا فيقول" وان في الجنّة لاشربة كثيرة غير الخمر فما فعل بشار بن برد فان له عندي يدا ليست لغيره من ولد ادم كان يفضلني دون الشعراء وهو القائل

إبليس أفضل من أبيكم ادم فتبينوا يا معشر الأشرار

النار عنصره وادم طينته والطين لا يسمو سمو النار

لقد قال الحقّ" ولم يزل قائله من المقوتين.فلا يسكت من كلامه إلاّ" ورجل في أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لاينظر ما نزل به من النقم فيفتحها الزبانيّة بكلاليب من النّار وإذا هو" بشّار بن برد" قد أعطي عينين بعد الكمه لينظر إلى ما نزل به من نكال ص ص(308 و309و310).

إمكانات عدة يتيحها الخبر في صيغة" خرب" تخلع عن الخبر زيف التمكن في اقتفاء الرّسم فيتمرد معلنا خبر الحق أو البيان المختلف بيان الشيطان الثابت في طبعه الإنساني رغم أصناف العذاب وكلاليب النار انه الوحيد المقتنع بفعله وماله فلم يمتهن النفاق ولم يلجم لسانه بخبر آخر يغالط خبره ولم يسع إلى الخلاص من النار بأساليب التمويه التى افتعلها ابن القارح..

وماخبر الشيطان المدعوم ببيتي شعر إلا اعتراف بل احتفاء فا بتهاج بفرحة التمرّد النّافع في وجه الغفران البائس الضارّ ومن منافع خراب الرّسم اهتداء الشّيطان إلى معرفة مخاطبيه بفلان وفلان لابالاسماء والألقاب في الجنّة كما هو الأمر لعلي بن منصور القارح وان لم يجد صعوبة في الاهتداء إلى معرفة بشّار بن برد وفي هذا أكثر من دلالة إذ الخبر يرفل في إيقاع سجع ساخر مصحوب بألم الحبّ" حبّ الدّنس حبّ الشيطان بل حبّ الطّبع الإنسانيّ الجريء على الاصداع بحقيقة الشّيطان الّتي يسعى ابن القارح إلى كتمها عن طريق خبر الغفران فهذه الحقيقة من ذاته لكنّه بخبر الرّسم يظهر انّه لايحبّها وكأني برسالة الغفران خبر فاضح أو خارب من ناحية وصك" توبة برواية كاذبة من ناحية أخرى وكأنّي أيضا بخبر الشيّطان شارة رفض بحجاج صادق وهكذا يكون إبليس في منظور المعرّي الرّاوي الطبيعيّ الإنسان هو كما هو بعد إدراكه الحدّ" النوعيّ للبدائي والنمطيّ أو هضمه الفويرقات المؤسّسة لذهنيّة كل خبر من الأخبار الفنّيّة فهو اصدق من ابن القارح وأجرا على قول الطّبع وان كان على ماهو عليه مكبّلا بالأغلال مبتهجا باللّعنة ومن يتغنّى باللّعنة من شعراء الغواية بسرد خبر بشّار السّاخر وقد أعطي عينين بعد الكمه ليلتذّ برؤية الألم وهنا يقدر الخبر على إبراز أهمّيّة المشهد باعتباره وسيلة تعذيب الاهيّ وكان عذاب الله لايكون ناجعا إلاّ بالمسخ وإرجاع العينين لشاعر أعمى ليشهد عذاب ذاته وكأنّنا هنا أمام الاه صاد مصاب بعقدة تعذيب الآخرين وعيونهم تبصر عذابهم أليست هذه عبثيّة تنسب إلى الخالق شانها شان المعتقدات المتعلّقة بالقول إنّ الله يجدّد للكافرين يوم القيامة جلودهم ليشعروا بالألم وهكذا فالألم الاهيّ مذاقه ارضي دنيويّ ومن هنا تنشا حيرة السّؤال الطّبيعيّة لإبليس عن مسالة الغلمان وأهل القريات في الجنّة.

* ناقد من تونس

ـ أبو العلاء المعرّي رسالة الغفران الطبعة الخامسة / تحقيق عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ ـ دار المعارف بمصر

قص

ذات صباح

رياض بيدس *

مصيدة

■ واخيرا ، بعد سفر طويل وعناء شديد وجد مكانا بدا له مناسبا بعض الشيء ، فتوقف هناك بسيارته التي ربما كانت فولسفاجن من النوع القديم ، وخرج منها منهكا ليلتقط انفاسه ويرتاح قليلا ، ثم يتابع سفره . التفت الى نفسه خطفا فالتقطت عيناه منظر شخص لم يعهده من قبل ، وتمتم بكلمة او كلمتين مستغربا ثيابه الرثة التي كان يرتديها . انها ثياب بالية ممزقة ، وبدا في تلك الثياب كما لو كان" كلوشار" . اتسعت حدقتا عينيه محدقا الى نفسه باستغراب وتساءل ، اهذا انا ام شخص آخر ، اذا لم اكن انا فمن اكون ، ومد يده ولمس نفسه وثيابه المبقعة ليتأكد وارتعب . بعد كل هذا التعب ارتدي هذه الثياب ، ما هذه الفضيحة ، وسرعان ما تقدم من السيارة خائفا متوجسا محتارا مضعضعا واراد ان يخرج منها محفظة ثيابه التي يحملها معه في سفره – ببساطة اراد باسرع ما يمكن ان يغيّر ثيابه هذه التي تستفزه ايضا وتجعله عصبيا متوترا ، كأن هذا ما كان ينقصه ، من اين اتت هذه الثياب التي عليّ ، وجال بنظراته في ارجاء المكان ، وفكر للحظة ، هل يمر احد من هنا ، لكن صوتا داخليا قال له انه من الافضل ان يرتدي ثيابه الجديدة على ثيابه القديمة ، هكذا تختفي القديمة تماما ، وتساءل ثياب جديدة على قديمة ، كيف يكون هذا ، واحتار لثوان ثم استقر رأيه على ان افضل طريقة في حالته ولو مؤقتا هي ان يسارع في ارتداء الثياب الجديدة على القديمة ، هكذا يخفي ثيابه الرثة ويرتاح ، والى ان يصل المكان الذي يقصده يكون شأن آخر ، وكاد يسأل نفسه اي مكان يقصد لانه ببساطة لا يعرف ، وابعد ذلك السؤال عن دائرة اهتمامه وقام بحركة عصبية دلّت على نفاد صبر واضطراب . وسار خطوتين ناحية سيارته وانحنى وامتد داخل السيارة متناولا شنطة ملابسه ، وما ان تناولها خارجا واراد ان يفتحها حتى سمع صوتا يناديه ليس باسمه الشخصي او اسم عائلته "هيه انت ، ماذا تفعل هنا ؟!" وبدلا من ان يجيب على سؤال صاحب الصوت وجد نفسه يسائل نفسه ويجيبها ، صحيح ما الذي افعله هنا ، ولم يحر ما جوابا ردا على الرجل الذي وقف يتنتظر اجابته ، ونظر صوب الرجل فرأى امامه عامل كراج او صاحب كراج – وكمن صحا ادرك انه يقف في ساحة كراج ، ما كل هذا ، هل السيارة بخير ، انها لم تتعطل ، حاول ان يجيب الشخص الآخر الا ان لسانه تجمّد . اعاد الشغيل او صاحب الكراج وعلى الارجح صاحب الكراج سؤاله ما الذي تريده بنبرة كلها تشكك وانزعاج ، حاول ان يشرح له ، ان يقول شيئا ، ان يطلق ولو كلمة واحدة الا ان كل الكلمات التي عرفها ذات مرة هاجرت او ولّت متخليّة عنه ، نظر صاحب الكراج الى ثيابه الرثة والمبقعة طويلا وتأمل الشنطة النظيفة اللامعة التي كان يمسك بها بيده كما لو ضبط متلبسا – بم ، لا يدري ، هل سرق شيئا ، تأمله الرجل طويلا ، ثم سأله "والسيارة هذه ، لمن تعود ؟!" هذه السيارة ، واوجس خيفة ، ماذا يقول له ، هل سيصدقه اذا حكى له بالذات وهو يرتدي هذه الثياب التي لا يعرف من اين سقطت عليه والتي لا يرتديها حتى عامل كراج ، فاجاب متلجلجا خائفا مرتبكا ، هذه ... هذذه السيارة ، فاستحثه صاحب الكراج متشككا برما "اجل ، هذه السيارة !" ومد يده صوبها ليؤكد له سؤاله ، لكنه شعر انه لا يملك جوابا على هذا السؤال فظل على صمته ، فاردف صاحب الكراج كارها تردده وصمته وحيرته "ليست لك اكيد ؟!" احتار ، كيف عرف انها ليست لي ، وتابع صاحب الكراج بلهجة كلها اتهام وتحد "اذن لمن ؟" وادرك ان عليه ان يحكي ، ان يقول ، ان يخرج من كل صمته وارتباكه وخوفه فقال مستغربا كل ما وقع فيه خصوصا حالته المزرية ، هذه السيارة لاقرباء لي لدار عمي يعني اقرباء لزم ، اثر سماع هذا استدار صاحب الكراج ضاحكا ضحكة لئيمة "دار عمك ؟! انت غريب هنا .. لست من اهل هذه البلاد .. كل ما فيك يقول انك لست من اهل هذه البلاد" ووجد نفسه يتساءل اثر هذا الاتهام الواضح الذي لا لبس فيه ، اين انا ، حقا في اي بلاد اكون الآن ، انها ليست بلادي ، وهذه اللغة التي اتكلّمها بصعوبة وبلسان ثقيل ليست لغتي ، بل ليست من لغتي في شيء بالمرة ، اانا في حلم ام علم ، ما الذي يحدث ، وما هذه الحالة التي انا عليها ، ايعقل كل هذا ، كان عليه اولا ان يصدّق هو حالته وما عليه لكنه وجد صعوبة كبيرة في ذلك ، كان يعرف ان السيارة تعود لدار عمه ، لكن كيف وصلت هذه الثياب اليه وهذه الحالة وهذا الشخص البغيض الذي يستجوبه ، كيف ، تحرّك صاحب الكراج في الساحة وقال بصوت حاد "انت لست من هذه البلاد والسيارة ليست لك ، سأتصل بالشرطة فورا!" الشرطة فورا ، واراد ان يهرب الا انه ازداد التصاقا في مكانه مذعورا خائفا كفأر وقع في مصيدة عملاقة .

عبور

لكي يصل الى البناء القديم الاشبه بقلعة كان عليه ان يعبر الجسر ذي الحدبة الكبيرة . هل عليه ان يجتاز هذا الجسر ام يبقى في مكانه ، لا عليه ان يجتاز هذا الجسر ، وشعر بخوف يجتاح كل كيانه ، من اين كل هذا الخوف ، ولماذا يشعر بالخوف من السير على هذا الجسر القديم الذي ربما بني منذ مئات السنين والذي مشت عليه اجيال واجيال ، وما وجد جوابا ، وبعد تردد واقدام دام لثوان بدت له دهرا تشجّع وشرع يحرّك قدميه باضطراب واضح الى ان حطتا على الجسر ، وما ان وقف فوقه شبه متجمّد حتى ادرك على نحو لا يقبل الجدل ان الجسر رجراج تحته وانه قابل للانهيار تحته في اية لحظة وان انهياره سيقود الى سقوطه معه سقوطا مدويا ، سينهاران معا ، ماذا عليّ ان افعل ، تساءل مرعوبا لا يدري ماذا يفعل ، لقد اكتشف ان الجسر على وشك الانهيار اكثر حين وصل الى حدبته الاشبه بهضبة صغيرة في نقطة الوسط ، وادرك ادراكا عميقا انه اذا عاد ادراجه ربما انهار واذا تقدّم ربما حصل ذلك ايضا ، تساوت الامور في كلا الحالين وبات التقدّم والرجعة يحملان نفس الخطر ، ما هذا الجسر ، من اي طين واحجار بني في الزمن الغابر ، وكيف يعبره الآخرون ، واستيقظ على وضوح الاجابة من اين لي ان اعرف ان الآخرين يمرون عليه فانا اراه للمرة الاولى في حياتي ولا يوجد هنا لا شايح ولا رايح ، اذن كيف يعبرونه ، كانت قدماه ترتجفان تحته ، والقى نظرة شبه غائمة ويائسة الى البناء القديم الكبير وحاول ان يستدير ليعود من حيث جاء الا انه ادرك ان عليه ان يجتاز هذا الجسر الآيل للسقوط باسرع ما يمكن في اتجاه البيت الكبير القديم ، وهكذا اسرع في خطوه مصليّا ان ينفذ بجلده اذ كان الجسر الطويل يتأرجح تحته ايضا كما لو كان هو الآخر خائفا منه ، واعجبته الفكرة يخاف مني انا الذي يأكل الفأر عشائي ، من هو الخائف اذن ، وتسلّى بهذه الفكرة المخيفة التي انبعثت من عمق خوفه الغائر العميق الذي لا نهاية له ، وظل على سيره الحذر البطيء الخفيف باذلا اقصى جهد يستطيعه على ان يلغي كل وزنه وان لا يلامس الجسر الا ملامسة خفيفة سريعة بطرف حذائه كما لو انها ضربات ريشة فنان ماهر وليس خطو انسان ، كان يشد بوزنه الى الاعلى وكان هناك في الاعلى ثمة من يساعده على ذلك وعلى جعل الجسر اكثر تماسكا ، وما ان وصل الى ما قبل نهاية الجسر حتى شعر بتعب شديد وان كل وزنه سيسقط على الجسر فخاف وقفز قفزة طويلة طلعت من طلوع الروح فوقع على الارض غير مصدّق انه افلح في اجتيازه صارخا بصوت عال اجتزت الجسر اجتزتك ايها الجسر القديم المتداعي ، ونظر الى البيت القديم الشبيه بقلعة واقترب منه بسرعة من غير ما تردد ، كان عليه ان يرى هذا البيت من الداخل ، ان يتعرّف اليه ، ان يستكشفه والا يقلق بالمرة بشأن العودة الى الضفة الاخرى اذا ما اضطر الى ذلك اساسا ، فما الذي يجبره على العودة ، توقف قليلا متأملا البيت الكبير ثم دخل اليه متحمسا لا يريد تأجيلا ، وادرك انه من تعجله او لهفته كاد يصطدم بعتبة الباب ويسقط ، لكنه تغلّب على ذلك ولملم نفسه ونظر امامه ، في البداية اصطدمت عيناه القادمتان من ضوء النهار بغبش ظلمة خفيفة فخفت حدة نظره المصوّب في ارجاء المكان الكبير الواسع ، حاول ان يسترد قوة بصره فاغمض عينيه لثوان كأنه يريد ان يتحقق من هذا المكان بواسطة صمته الذي لا يكسره الا صوت انفاسه المتسارعة التي كانت تضخ في شرايينه ويسمعها بوضوح ، وحين اراد ان يفتح عينيه سمع صوتا ، اجل صوت هل هذا صحيح أم ، من يسكن هذا البيت او القعة ، وفتح عينيه على وسعهما و نظر صوب الصوت ، كان الصوت قادما من مكان ما من غرفة ، من بهو ، تطلّع جيدا ، كانت اصوات نساء ، وبعد ان اعتادت عيناه غبش الغرفة استطاع ان يرى مجموعة من النساء كن ينظرن اليه ، هل هن ساحرات ، ما الذي يفعلنه هنا في هذا البيت الكبير ، وحين تأملهن وتبيّن ملامحهن اكثر رأى احداهن تضحك ، فيما كانت اخرى توشوش بصوت سمعه واضحا انه ليس بطلا كما يحسب نفسه لانه عبر الجسر اذ يعبرن هن الجسر يوميا كما يمشي هو على الارض ، وتساءل من قال اني اظن اني بطل ، هذا امر غريب ، انا ، ثم اشارت اليه اخرى ضاحكة باستهتار قائلة انه بطل حقيقي ، وفوجيء من هذه التعليقات التي لم تخطر ببالة ، ما الامر ، ولا يعرف كيف وجد نفسه خارجا من ذلك البيت غاضبا شبه مبخوس غير مدرك كل ما جرى كما لو انه حدث كله بلمح البصر او كان اشبه بشريط كر امام ناظريه بسرعة ، مكث في مكانه في الخارج برهة واستذكر الوجوه ، كانت احداهن جميلة ، هل قالت شيئا ، انه لا يتذكر ، كل ما يذكره هو انها ربما ظلت صامتة او انه ببساطة لا يريد ان يتذكر كيف كانت لانها كانت اكثرهن سخرية منه ، اذن كانت هي الاخرى تشارك ، علي ان انسى قال لنفسه ، وظل على نسيانه المريح سائرا بصمت وهدوء محبين اليه كثيرا كأنه في حل من اي شيء كان ، ثم فجأة اخذت ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة ، ثمة فكرة لامعة برقت في ذهنه بقوة ، كأنها جنبا الى جنب الى جنب ابتسامته التي كبرت نبعت هي الآخرى من اعمق اعماقه ، من اين جاءتني هذا الفكرة الجميلة، ليس مهما من اين اتت ، المهم انه سينتقم لنفسه من تلك الجميلة التي سخرت منه شر انتقام ، اجل سينتقم منها بالحب ، وضحك وهو يؤكد لنفسه ان اجمل انواع الانتقام هو الحب .

ذات صباح

جاء في الكتاب الشهير "منتقيات من كتاب الفرج بعد الشدة والخوف والرعبة" لمؤلفه جواد ابن عقيل المقدسي ، نقلا عن كتاب "غرائب الابصار في مختلف الامصار" الواسع الانتشار انه :"ذات صباح في سنة من سنوات الخير ، وما اقلّها ، استيقظ المد